بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* ان بعض الذين يشتغلون بالفلسفة الاسلامية يرونها فقط فى مجال ما أثر عن الاغريق ، أو ما أثر عن الفلسفة الشرقية . وتبعا لذلك يرون الفكر الاسلامى هو ذلك الفكر الذى عالج قضايا الفكر الدخيل فى العصر الوسيط ، سواء بالملاءمة بينه وبين مبادىء الاسلام ، أو برفضه كليا أو جزئيا .

وما عدا هذا الفكر للمسلمين يدخل فى نطاق « الفكر الدينى » : فى مجال الدفاع عن العقيدة ، أو مجال الفقه وتكييف أحداث الحياة الانسانية واعدادها لتطابع الاسلامى ، عن طريق الاجتهاد .

ولكن هذه النظرة لتفكير المسلمين تقصر عن ان تسع تاريخ الفكر الاسلامى ، اذا ماعرف هذا الفكر من واقعه وانه : الفكر الذى يحافظ على قيمة الايمان بالاسلام ، وقيمة المبادىء التى جاءت بها رسالة الاسلام للانسان فى حياته الفردية أو فى مجتمعه مع غيره .

فقد يرى هذا الفكر حرصه على بقاء هذه القيمة للايمان فى : مواجهة الفكر الدخيل ، وتحليل عناصره وتقييمها . وقد يرى هذا الحرص فى : الكشف عن « الضعف » الداخلى فى اتجاه المسلمين وانحراف مذاهبهم ومدارسهم ، واختلاف احزابهم . والفكر الدخيل فى وقت قد يكون له طابع وهدف ، وفى وقت آخر لاحق قد يكون له طابع وهدف يختلف فيها عن ذى قبل . والضعف الداخلى فى اتجاه المسلمين ومذاهبهم قد يكون لعوامل معينة فى زمن ، تأتى عوامل اخرى بدلة عنها فى زمن آخر .

ولذا : فالفكر الاسلامى فكر مستمر لايقف عند حقبة معينة من الزمن ، ولا عند مفكرين معينين فى جيل من الأجيال .

فان واجه الايمان بالاسلام الفكر الاغريقى والفكر الفارسى أو الهندى فى وقت ما بالأمس ، فانه يواجه فى وقت آخر بعده : الفكر العلمانى الصليبى ، والفكر الالحادى الماركسى اليوم .

وان واجه هذا الايمان الضعف الداخلى الذى كان يتمثل فى الخصومة المذهبية والطائفية بين المسلمين أنفسهم ، فانه يواجه اليوم ضعفا داخليا آخر يتمثل فى « تبعية » تتمثل فى خصومة مذهبية وطائفية كذلك ، ولكن لغير المسلمين .. لأعداء الاسلام .

* ولذا فللفكر الاسلامى عهود ومراحل . وفى كل عهد أو فى كل مرحلة له قضايا وله رجال . وأى عهد وأية مرحلة تختلف عن عهد سابق او عن مرحلة اخرى قبلها .

وهذا الكتاب : « الفكر الاسلامى فى تطوره » قصد به القاء نظرة على مراحل هذا الفكر ، واعطاء صورة لوجوده وامتداده الى اليوم الذى نعيش فيه الآن .

وهو اذ يبرز فى بعض فصوله مواجهة التفكير لدى المسلمين للفكر الدخيل على أمتهم ودينهم ، ويوضح فى بعض فصوله الأخرى مواجهة هذا التفكير للضعف الداخلى الناشى عن الخصومة المذهبية الطائفية .

وبهذا وذاك يوصل حلقات التفكير عند المسلمين بعضها ببعض ، وان اختلف موضوع التفكير وتعددت أو اختلفت العوامل التى تضطر وتدفع اليه .

وبهذا الوصل بين حلقات التفكير ينير هذا الكتاب الطريق لقارىء الفكر الاسلامى ولدارسه ايضا ، نحو هدف الفكر الاسلامى منذ نشأته ، ونحو عدم الوقوف بتاريخ هذا الفكر عند حقبة معينة من الزمن ، أو عند مجموعة خاصة من المفكرين ، ينتسبون فى تفكيرهم الى موضوع خاص .

وبهذا الوصل كذلك اذا اعتبر الفكر الاسلامى فى لقائه أو فى مواجهته للفكر الاغريقى ، وللفكر الفارسى والهندى ، على عهد العباسيين فلسفة اسلامية ، فانه اليوم فى مواجهته للفكر الأوروبى العلمانى ، أو للفكر الآخر الماركسى اللينينى يعتبر ايضا فلسفة اسلامية ، وفلسفة اسلامية معاصرة .

كذلك — بهذا الوصل — اذ اعتبر نقد ابن تيمية فى القرن السابع الهجرى ، والحركات الاسلامية الأخرى بعده التى تأثرت به ، لضعف المسلمين الناشىء عن الحزبية الفكرية ، والخصومة الطائفية والمذهبية ، فلسفة اسلامية ، فان نقد « التبعية » للغرب أو للشرق اليوم ، وللكتلة الاستعمارية الرأسمالية ، أو للكتلة الاستعمارية الماركسية الشيوعية ، يعتبر فلسفة اسلامية ، وفلسفة اسلامية معاصرة . اذ هذه التبعية أيضا ضعف ناشىء عن تحزب فكرى وخصومة طائفية ومذهبية ، كذلك الضعف على عهد ابن تيمية .

وطالما كان الفكر الاسلامى — كما يحاول الكتاب أن يعرضه — هو فكرا للحفاظ على الايمان بالله والقيم الاسلامية . فتأييد هذا الحفاظ ، أو نقد ما يضعفه أو يواجهه فى تحد من أسباب ، هو فكر اسلامى : فى عهد مضى ، أو فى حاضر ، أو فى آت .

والله الموفق ، والمعين ، وعليه توكلت واليه أنيب .

محمد البهى

مصر الجديدة فى ربيع الأول سنة ١٣٩٠هـ
مايو سنة ١٩٧٠م

تمهيد

الفكر الاسلامى هو المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الاسلام فى مصادره الأصلية : للقرآن ، والسنة الصحيحة :

١ — اما تفقها واستنباطا لأحكام دينية فى صلة الانسان بخالقه فى العبادة ، أو فى صلة الانسان بالانسان فى المعاملات ، أو لمعالجة احداث جدت ، لم تعرف بذاتها فى تاريخ الجماعة الاسلامية — على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد صحابته رضوان الله عليهم — أو تبريرا لتصرفات خاصة صدرت وتمت ، أو تصدر تحت تأثير عوامل أخرى .

٢ — واما توفيقا بين مبادىء الدين وتعاليمه من جانب ، وفكر (١) أجنبية دخلت الجماعة الاسلامية من جانب آخر ، بعد أن قبلت هذه الفكر كمصدر آخر للتوجيه .

٣ — أو دفاعا عن العقائد التى وردت فيه ، أو ردا لعقائد أخرى مناوئه لها ، حاولت أن تحتل منزلة فى الحياة الاسلامية العامة ، لسبب أو لآخر .

... الى غير ذلك من الدوافع والأسباب التى تدعو الى اعمال الفكر فى المحافظة على الطابع الاسلامى . كما يراد له ان يكون او يبقى ذا صبغة اسلامية .

وهذه المحاولات العقلية لم تبدو كظاهرة عامة فى الجماعة الاسلامية الأولى أيام الدعوة الى الاسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فى عهد الخلفاء الراشدين من أصحابه . بل شغل هذا الوقت ، أو اشتغل فيه المسلمون بنشر الدعوة وتمكين الجماعة الاسلامية من الاستقرار ، وارساء الحياة الاسلامية فيها على مبادىء القرآن والسنة الصحيحة :

---

(١) بكسر الفاء وفتح الكاف وكسر الراء .

بالتطبيق العملى لوصايا الاسلام ، وعدم الانفكاك عن الأسلوب الذى التزم به الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فى تصرفاته .

ولكنها (اى هذه المحاولات) وضحت — كظاهرة عامة — يوم أن خف ايمان المسلمين بالاسلام ، وشغلت الحياة الدنيا ركنا فسيحا فى قلوبهم ، واضطروا من أجل ذلك الى الملاءمة بين اسلامهم كدين وعقيدة ، وبين تصرفاتهم فى هذه الحياة تبعا لمنزلة هذه الحياة الدنيا التى صارت اليها فى تقديرهم ، بعد أن كانت الدنيا كلها على هامش حياة السلف من قبلهم .. بدت هذه الظاهرة فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى ، واصبح منذئذ يؤرخ لفكر اسلامى ، ولاتجاهات فكرية اسلامية مختلفة .

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن قطع الفكر الاسلامى مرحلتين . ونعيش الآن نحن فى الثالثة .

* قطع المرحلة الأولى : وهى مرحلة التكوين . وفيها تكونت اتجاهاته الأساسية ، ومدارسه المختلفة :

فتكونت مذاهب العقيدة ،

ومذاهب الفقهـــاء ،

ومدارس الصـــــوفية ،

ومدارس الفلسفة ،

ومذاهب التفسير للقرآن الكريم ،

كما تكونت واتسعت الفجوة بين الشيعة والسنة .

وترجع العوامل التى ساعدت على تكوين هذه الاتجاهات الفكرية جميعها الى :

اولا : الى تأثير الأحداث المحلية ، والانقلابات الداخلية . فقد عاون هذا العامل على تأسيس مذاهب العقيدة فى « الامامة » . ورأينا رايا :

(أ) للخوارج (بزعامة الأشعث بن قيس) ،

(ب) وللشيعة الزيدية والامامية ، والغلاة أو الاسماعيلية الباطنية ،

(جـ) وللمحايدين ، كعبد الله بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ،

(د) وللمرجئة ، كغيلان الدمشقى ،

ثم راينا المدرسة الاعتزالية ،

والصـــفاتية أو الأشعرية ،

.. كل واحدة منها تدلى برأيها فى الامامة ، كما تدلى بالرأى فى بقية المسائل الأصولية والاعتقادية .

وثانيا : إلى تسرب الفكر الأجنبى الوثنى المصرى (فى الاسكندرية) ، والدينى الشرقى : البوذى ، والبرهمى ، والزرادشتى ، والمانوى المسيحى ، واليهودى ، والفلسفى الاغريقى .

وهذا الأخير أحدث :

(أ) المذاهب الفلسفية ، التى منها :

١ ــ الاتجاه الفلسفى لما بعد الطبيعة ، وهو الذى يمثله ابن سينا فى المشرق ، وابن رشد فى المغرب .

٢ ــ والاتجاه الفلسفى الطبيعى ، الذى يمثله ابو بكر الرازى .

٣ ــ والاتجاه الفلسفى الاشراقى الذى يمثله السهروردى المقتول .

(ب) ... كما ساعد على نشـــأة :

١ ــ التصوف الزهدى ، الذى يمثله الحارث المحاسبى .

٢ ــ والتصوف الفلسفى ، الذى يمثله الغزالى .

٣ ــ والتصوف الهندى المسيحى الأفلاطونى الحديث ، الذى يمثله ابن عربى . وابن سبعين ، والحلاج .

وثالثا : الى مواجهة احداث الحياة ، وتطور المجتمع الاسلامى :

من مجتمع بسيط الى مجتمع حضارى مركب ،

ومن سياسى محلى الى سياسى عالمى أو دولى .

وهذا العامل كون مدارس للفقه المختلفة التى تتوزع : بين أصحاب الحديث ، وهم أهل الحجاز :

١ ــ أصحاب مالك بن أنس .

٢ ــ وأصحاب محمد بن ادريس الشافعى .

٣ ــ وأصحاب سفيان الثورى .

٤ ــ وأصحاب أحمد بن حنبل .

٥ ــ وأصحاب داوود بن على بن الأصفهانى الظاهرى .

وهؤلاء جميعا يقدمون الخبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام على القياس الجلى والخفى . ويروى عن الشافعى قوله :

« اذا وجدتم لى مذهبا ، ووجدتم خبرا على خلاف مذهبى ، فاعلموا : أن مذهبى ذلك الخبر » .

... وأصحاب الرأى ، وهم أهل العراق ، أصحاب أبى حنيفة النعمان ابن ثابت .

وهؤلاء ربما يقدمون القياس الجلى على أخبار الآحاد التى تنسب اليه عليه الصلاة والسلام ، اذ يروى عن أبى حنيفة قوله :

« علمنا هذا رأى ، وهو أحسن ماقدرنا عليه ، فمن قدر على غير ذلك ، فله مارأى ولنا مارأيناه » .

وتفاعل الفكر الاسلامى مع أحداث الحياة الانسانية فى الجماعة الاسلامية قانون عام تخضع له أية جماعة انسانية ، كما يخضع له الفرد نفسه :

فيما وقع فيها من خلاف حول الرياسة العامة للدولة ، وما تسرب اليها من فكر (١) انسانية ، وتعاليم دينية دخيلة ــ يقع ويتسرب مع أية جماعة انسانية ، متى توافرت الظروف التى تساعد على وقوع ذلك .

وتطور الحياة نفسها من بسيطة الى معقدة ، ومن محدودة الجوانب

---

(١) بكسر الفاء وفتح الكاف وكسر الراء .

الى كثيرة الجوانب — مبدأ يقضى به التوسع والخروج عن عزلة الحياة الضيقة لأية جماعة نمت وتزايدت .

والعامل الأول من هذه العوامل الثلاثة المجددة للفكر الاسلامى فى المرحلة الأولى — وهو تأثير الأحداث المحلية والانقلابات الداخلية — ان كان صاحب أثر سلبى على وحدة الجماعة الاسلامية ، ومال بالجدل العقلى الى خصومة انحرف فيها طرفا الخصومة عن حد الاعتدال ، وعن مقاييس المنطق الانسانى ، والمعايير السليمة الواضحة للدين والتدين .. فان العامل الثانى، وهو تسرب الفكر الأجنبية الدينية والفلسفية ، قد أظهر فى وضوح قبول الاسلام لتحدى هذه الفكر ، ولم تستطع أن تفرض عليه توجيهها الخاص .

والعمل العقلى الفلسفى للمسلمين يبرهن :

اما على هضم الاسلام لهذه الفكرة وادخالها فى محيط تعاليمه .

واما على وهنها (أى وهن هذه الفكر) وعدم استطاعتها الوقوف أمام اختبار العقل الصحيح .

وهذا يدل من جانب آخر على : أن الاسلام يستطيع أن يواجه أية ثقافة فكرية انسانية دون أن يخشى عليه ، طالما وجد من المنتسبين اليه من يستطيع فهمه فى أصوله وغايته .

وكذلك الشأن بالنسبة للعامل الثالث ، وهو مواجهة أحداث الحياة وتطور المجتمع الاسلامى ، فان تفاعل الاسلام مع هذا العامل كان تفاعلا خصبا منتجا . وبرهن على مرونة الاسلام فى مبادئه بفضل الاجتهاد ، وعلى سعة استيعابه للمستجد من مشاكل الحياة :

فالفقه الاسلامى تدل كثرة مذاهبه ومدارسه على سعة محاولة لتكييف الأحداث من وجهة نظر الاسلام .

والخلاف الذى بينها فى اعتبار بعض أصول التفقه والمراجع التى ترد اليها أحكام الحوادث ، لم يكن الا خلافا ناشئا عن رغبة المختلفين فى ضرورة الحرص على بقاء الجماعة الاسلامية آخذة بالاسلام فى منهاج حياتها اليومى :

فتقديم الخبر والرواية على القياس ،

أو تقديم القياس على خبر الآحاد — وهو الخلاف الذى بين أهل الحديث واصحاب الرأى فى المدارس الفقهية — بهدف من الطرفين المختلفين فى التقدير على هذا النحو الى عدم اغلات حدث من الأحداث من أن تكون له صبغة اسـلامية .

فخبر الآحاد — لأنه آحاد — لايزيد فى قيمته الحجية فى واقع الأمر على قيمة الحاق أمر لم ينص على حكمه بأمر آخر نص على حكمه فى الكتاب أو السنة الصحيحة المعتمدة ، وهو مفاد القياس .

كما يدل استيعاب جوانب الحياة المختلفة على مدى تفاعل الاسلام مع مبدأ تطور الجماعة الاسلامية كجماعة انسانية :

فلم يقف عند حد تحديد شأن عبادة المخلوق لخالقه ، والكيفية التى تؤدى بها هذه العبادة . بل تجاوز ذلك :

الى علاقة الأفراد بعضهم ببعض كرعية ،

وعلاقتهم بمن يقوم على ولايتهم كراع ،

وعلاقته بهم كاخوان له فى الاسـلام ،

ثم علاقة الجماعة الاسلامية فى الاسلام فى جملتها بجماعة اخرى أجنبية لاتدين بالاسـلام .

واستطاع المجتهد الأول — واصحاب المذاهب الفقهية ، أن يوجدوا أنواعا متعددة من الفقـه ،

واصبحوا يعرضون فى ندواتهم وتواليفهم :

لفقـه العبـادة ،

بجانب فقه العقود ،

وفقه التجارة والاقتصـاد ،

وفقه الأسرة ،

وفقـــه التركات وتوزيعها ،

وفقـــه العقوبات ،

وفقـــه الظروف الاستثنائية أو فقه المصالح المرسلة ،

وفقـــه الحـــرب والأسر ،

وفقه الهجوم والدفاع ، وهو فقه الجهاد .

كما تعرضوا لتصفية بعض النظم الاجتماعية السابقة على الاسلام : كنظـــام الرق ،

أو لتقييدها : كنظـــام الزوجية .

... وهكذا فى هذه المرحلة نجد تفكير المسلمين قد تفاعل مع الحياة التى يعيشون فيها ، ونجد المسلمين قد صاغوا جوانب حياتهم المختلفة صياغة اسلامية ، مع سلبية فى بعض هذه الجوانب ، وايجابية واضحة فى البعض الآخر . شأن كل جماعة انسانية فى تبلور حياتها من مبدأ ، أو فكرة ، أو عقيدة ارتضتها لنفسها كأساس فى التوجيه بها .

* * *

* وقطع الفكر الاسلامى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة اعادة بناء المجتمع الاسلامى .

وفى هذه المرحلة :

استخلصت أسباب الضعف ، وعوامل تمزيق الوحدة الاسلامية .

كما حددت من جانب آخر عوامل التقريب ، واعادة التماسك من جديد .

وترجع عوامل اضمحلال الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة التى دفعت الى التفكير فى اعادة البناء من جديد :

أولا : الى الأثر السلبى لمذاهب الفكر الاسلامى فى المرحلة السابقة . هذا الأثر الذى جاء :

نتيجة لحال الانحدار نحو الضعف الذهنى ،

والتعصب فى غير احتياط ،

والافراط فى التقليد والغاء الشخصية الانسانية المتأخرة ،

والجنوح بتعاليم الاسلام الى ما هو بعيد عن الاسلام .

وثانيا : الى اثر الاعتداء الذى قام به التتار من الشرق ، والى غزاة الصليبيين من الغـــرب .

أما العوامل التى رآها أصحاب الدعوة الى اعادة بناء المجتمع الاسلامى فانها ترجع :

اولا : الى اضعاف التعصب لمذاهب المرحلة السابقة ومدارسها المتنوعة .

وثانيا : الى فصل ماليس باسلام مما هو اسلام ، عن طريق الرجوع الى القرآن والسنة الصحيحة ، واعتبارهما أساسا للرأى فى ذلك ، وفى طبع احداث الحياة بطابع اسلامى .

وهـــذا العامل الثانى يستدعى :

اضعاف « التقليد » من جهة ،

والدعوة الى « الاجتهاد » من جهة أخرى .

وقد حمل لواء الحركة الفكرية فى هذه المرحلة الثانية :

١ ــ محمد بن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية .

٢ ــ ومحمد بن عبد الوهاب ، كمقدر لحركة ابن تيمية وحريص على صـــيانتها .

٣ ــ ومحمد بن على السنوسى الكبير ، كداعية الى الرجوع الى القرآن والسنة ، وتخليص الفكر الاسلامى من مظاهر ضعفه وركوده .

٤ ــ وعثمان بن محمد بن فودى (١٢٣٢هـ ــ ١٨١٧م) الداعى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فى غرب افريقيا .

* أما المرحلة التى لم يزل الفكر الاسلامى يعيش فيها حتى الآن : فى تحد وصراع ، فهى :

تلك المرحلة التى ظهر فيها الاستعمار الغربى والاستعمار الشرقى ويحاولان السيطرة على توجيه المسلمين فيها .

وفى هذه المرحلة الراهنة الحرجة يتجه الفكر الاسلامى مرة الى تأييد الاستعمار ، أو على الأقل يتجه الى الولاء له .

وبدا هذا الاتجاه فى بحوث بعض زعماء « الاصلاح » فى الهند ، وفى مقدمتهم السيد أحمد خان .

كما بدا فى نشأة بعض المذاهب الدينية الجديدة داخل الجماعة الاسلامية، كمذهب الأحمدية الذى تفرع عنه فيما بعد مايسمى « بالقاديانية » .

وبالاضافة الى هذا وذاك بدا هذا الاتجاه كذلك :

فى دراسة المستشرقين للاسلام ، وتصدير هذه الدراسة الى المسلمين وتقديمها اليهم فى صورة بحوث أو فى صورة توجيه جامعى ، أو تنوير عام .

كما بدا فى استجلاب الفكر الماركسى اللينينى ، و « الماوى » وتقريبه الى الاسلام باسم الثورة الاجتماعية و « التقدمية » نحو : ديكتاتورية الطبقة العاملة العالمية .

واتجه الفكر الاسلامى مرة اخرى فى هذه المرحلة الى مقاومة الاستعمار الغربى والشرقى ، ومقاومة تلك المذاهب والبحوث الفكرية الاسلامية التى خلقها لمعاونته فى تمكين سلطاته فى رقعة البلاد الاسلامية .

وبدا هذا الاتجاه فى حركة جمال الدين الأفغانى .

ثم فى حركة الشيخ محمد عبده ومدرسته الاصلاحية بعده .

ثم فى دعاة آخرين بعدهما — كاقبال وغيره — لتوضيح خطر الاتجاهين على الاسلام والمجتمعات الاسلامية .

منذ بداية القرن العشرين أخذ التفكير الاسلامى اما :

طابع « التجديد » ،

أو طابع الاصلاح الدينى .

دون أن تكون للحركة « التجديدية الفكرية » الآن صلة مباشرة بمعاونة الاستعمار ، على نحو ماكان الاتجاه الفكرى الذى قام طول نصف القرن الأخير بمساندة الاستعمار وطبع نفسه بطابع « التجديد » أو « الاصلاح » وهو اتجاه السيد أحمد خان ، ومذهب الأحمدية فى الهند .

فقد قام كلاهما لخدمة الاستعمار ، ولكنه غطى هذا الهدف باسم التجديد والاصـــلاح .

ومع كون حركة التجديد فى الفكر الاسلامى فى هذا القرن العشرين لم تكن بأملاء الاستعمار الغربى مباشرة ، فانها مع الأسف الشديد تعاونه على ازدياد نفوذه لأنها ترديد اما للفكر الغربى ونظرته الى الاسلام ،

أو للفكر الغربى الطبيعى ونظرته المادية فى الحياة .

وبذلك تعتبر (هذه الحركة التجديدية) من حيث الأثر السلبى على « القيم الاسلامية » استمرار لاتجاه معاونة الاستعمار المكشوفة فى القرن الماضى ،

بل كانت فى سلبيتها اشد وأقسى على هذه القيم ، لأنه لم يتصل بها اتهام معاونة الغرب المستعمر ، كما صاحب هذا الاتهام حركة التجديد الماضـــــية .

ودراسة الفكر الاسلامى فى هذه المراحل الثلاث تعنى قبل كل شىء ببيان العوامل الايجابية ، والأخرى السلبية ، التى لها أثر مباشر اما فى قوة المسلمين ودفعهم الى الأمام ، أو فى ضعف المســـلمين وتمزيق كلمتهم وابعادهم عن سيادة أنفسهم على أنفسهم .

* * *